

## الباب الثالث

في سياق حجج من اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس يوم القيامة .

قالوا : قولنا هذا هو الذي فطر الله عليه الناس صغيرهم وكبيرهم ، لم يخطر بقلوبهم سواه ، وأكثرهم لا يعلم في ذلك نزاعاً .

قالوا : وقد روى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي مالك ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، وأبي مالك، عن ربيعي، عن حذيفة قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يجمعُ اللهُ تعالى الناس، فيقومُ المؤمنونَ حتى تُزْلَفَ لهم الجنةُ، فيأتونَ آدمَ [ عليه السلام ] فيقولونَ : يا أبانا : استفتحْ لنا الجنةَ : فيقول : وهل أخرجكم من الجنةِ إلا خطيئةُ أبيكم ؟»<sup>(١)</sup> وذكر الحديث .

قالوا : وهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها .

وفي « الصحيحين » حديث احتجاج آدم وموسى ، وقول موسى : أخرجتنا ونفسك من الجنة<sup>(٢)</sup> ، ولو كانت في الأرض ، فهم قد خرجوا من بساتين ، فلم يخرجوا من الجنة . وكذلك قول آدم للمؤمنين يوم القيامة : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا .

قالوا : وقد قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنتَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . ومعنى تُزْلَفُ : أي تُقْرَبُ .

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٤) في القدر : باب تحاج آدم وموسى عند الله ، ومسلم (٢٦٥٢) في القدر : باب حجج آدم وموسى عليهما السلام .

وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿ [ البقرة : ٣٥ - ٣٦ ] .

فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين : أحدهما : من لفظة ﴿ اهبطوا ﴾ ، فإنه نزول من علو إلى سفلى .

والثاني قوله : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ [ البقرة : ٣٦ ] . عقيب قوله : ﴿ اهبطوا ﴾ . فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف : ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ﴾ [ الأعراف : ٢٥ ] ، ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده .

قالوا : وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحي ﴾ . [ طه : ١١٨ - ١١٩ ] ، وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له شيء من ذلك ، وقابل سبحانه بين الجوع والعري ، والظمأ والضحي ، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش ، والعري والضحي . فإن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن ، والضحي حر الظاهر . فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن ، وحر الظاهر والباطن ، وهذا شأن ساكن جنة الخلد .

قالوا : وأيضاً ، فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى ﴾ [ طه : ١٢٠ ] . فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وأن ملكها يبلى .

قالوا : وأيضاً هذه القصة في سورة البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء ، فإنه سبحانه قال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم

لبعض عدوِّ ولكُمْ في الأرض مُستقرًّا ومتاعاً إلى حين . فَنَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ [ البقرة : ٣٤ - ٣٧ ] . فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة ، ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقد قيل : إن الخطاب لهما وللحية ، وهذا ضعيف جداً ، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ، ولا في السياق ما يدل عليها . وقيل : الخطاب لآدم وحواء ، وأتى فيه بضمير الجمع كقوله : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٧٨ ] . وهما داود وسليمان ، وقيل : لآدم وحواء وذريتهما .

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول ، لأنها بين قول لا دليل عليه ، وبين ما يدل اللفظ على خلافه ، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين ، فإذا تقرر هذا ، فقد كرّر سبحانه الإهباط ثانياً بقوله : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتيتكم مني هُدًى فمن تبع هُدَايَ فلا خوفَ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [ البقرة : ٣٨ ] . والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول ، وهو إهباط من السماء إلى الأرض ، والأول إهباط من الجنة . وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولاً فوق السماء جنة الخلد ، وقد ظن الزمخشري أن قوله : ﴿ اهبطوا منها جميعاً ﴾ خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذريتهما . قال : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ [ طه : ١٢٣ ] . قال : ويدل على ذلك قوله : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فلا خوفَ عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [ البقرة : ٣٨ - ٣٩ ] . وما هو إلا حكم يعمُّ الناس كلهم<sup>(١)</sup> .

ومعنى [ قوله ] : ﴿ بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ ، ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم بعضاً . وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية ، فإن العداوة التي ذكرها الله تعالى إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [ فاطر : ٦ ] ، وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان ، وأعاد وأبدى ذكرها في

(١) انظر الكشاف : ٢٧٤/١ .

القرآن ، لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو ، وأما آدم وزوجته ، فإنه إنما أخبر في كتابه أنه خلقها ليسكن إليها ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته ، والعداوة بين الإنسان والشيطان .

وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس وهم ثلاثة ، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرتهم لطريق الكلام دون جميعه ، مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه ، فلم يصنع الزمخشري شيئاً .

وأما قوله تعالى في سورة [ طه ] : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [ طه : ١٢٣ ] . وهذا خطاب لآدم وحواء ، وقد جعل بعضهم عدواً لبعض : فالضمير في قوله : ﴿ اهْبِطْ مِنْهَا ﴾ إما أن يرجع إلى آدم وزوجه ، أو إلى آدم وإبليس ، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له : وعلى هذا ، فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط ، وهما آدم وإبليس ، فالأمر ظاهر ، وأما على الأول ، فتكون الآية قد اشتملت على أمرين :

أحدهما : أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط .

والثاني : إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه ، وبين إبليس ، ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني دون الأول ، ولا بد أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [ طه : ١١٧ ] . وقال للذرية : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [ فاطر : ٦ ] .

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية ؟ وأما الإهباط فتارة يذكره بلفظ الجمع ، وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الإفراد ، كقوله في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، وكذلك في سورة ﴿ ص ﴾ ، وهذا لإبليس وحده ، وحيث ورد بصيغة الجمع ، فهو لآدم وزوجه وإبليس ، إذ مدار القصة عليهم ، وحيث ورد بلفظ التثنية ، فيما أن يكون لآدم وزوجه ، إذ هما اللذان باسرا الأكل من الشجرة ، وأقدا على المعصية ، وإما أن يكون لآدم وإبليس ، إذ هما أبوا الثقلين ، وأصلا الذرية ، فذكر حالهما ، ومآل أمرهما

ليكون عظة وعبرة لأولادهما ، وقد حكيت القولين في ذلك .

والذي يوضح أن الضمير في قوله : ﴿ اهبطاً منها جميعاً ﴾ لآدم وإبليس ، أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجته فقال : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ، قَالَ اهبطاً منها جميعاً ﴾ [ طه : ١٢١ - ١٢٣ ] . وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ، ومن زين له المعصية ، ودخلت الزوجة تبعاً ، فإن المقصود إخبار الله تعالى للثقلين ، بما جرى على أبيهما من شؤم المعصية ، ومخالفة الأمر ، فذكر أبيهما أبلغ في حصول هذا المعنى ، ومن ذكر أبي الإنس فقط . .

وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم ، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة ، فعلم أن حكم الزوجة كذلك ، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم ، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبي الثقلين أولى من تجريده إلى ذكر أبي الإنس وأمهم ، فتأمله . وبالجملته فقلوه ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدوؤ ﴾ : ظاهر في الجمع ، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله : ﴿ اهبطاً ﴾ من غير موجب .

قالوا : وأيضاً فالجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع ، كقوله : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [ البقرة : ٣٥ ] . ونظائره ، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها ، فحيث ورد لفظها معروفاً انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين ، وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة ، أو مقيدة بالإضافة ، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض :

فالأول : كقوله : ﴿ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ [الكهف : ٣٢].

والثاني : كقوله : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ ﴾ [ الكهف : ٣٩ ] .

والثالث : كقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [ القلم : ١٧ ] .

قالوا : ومما يدل على أن جنة آدم هي جنة المأوى ، ما روى هودّة بن خليفة عن عوف ، عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال : إن الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة ، وعلمه صنعة كل شيء ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغيّر وتلك لا تتغيّر .

قالوا : وقد ضمن الله سبحانه وتعالى له إن تاب إليه ، وأناب أن يعيده إليها ، كما روى المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [ البقرة : ٣٧ ] . قال : يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تنفخ في من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تسكنني جنتك ؟ قال : بلى ، قال : أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى ، قال أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى ، قال : فهو قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وله طرق عن ابن عباس ، وفي بعضها : كان آدم قال لربه إذ عصاه : رب إن أنا تبت وأصلحت ، فقال له ربه : إني راجعك إلى الجنة . فهذا بعض ما احتج به القائلون بأنها جنة الخلد ، ونحن نسوق حُجج الآخرين .